البيئة المكانية عند نقاد القرن الثالث الهجري (دراسة في ضوء نقد النقد)

أ.د. هيرش محمد أمين
قسم اللغة العربية / كلية اللغات / جامعة السليمانية
م.م. سعدون حميد صالح
قسم اللغة العربية / كلية التربية / جامعة كرميان

The spatial environment for critics of the third century AH (A study in the light of criticism of criticism)

Hirsch Muhammed Amin
hersh.amin@univsul.edu.iq
Department of Arabic Language/College of Languages/University of Sulaymaniyah
Saadoun Hamid Saleh
Department of Arabic Language / College of Education / Garmian University
saadoon.hameed@garmian.edu.krd

Abstract

The study focuses on the space among the third century A.H critics in the light of Criticism of Criticism . This space raised several questions among the critics duo to its importance and its role in the division of poets and and preference, especially in the classes, which was one of the important elements in exposing the quality of poetry and its artistic kind . Therefore, I thought here to focus on the criticism of criticism and exposing the spatial impact of poetry's poets in the third century A.H .

Key words: criticism, spatial environment, the desert, the present, the division of poets.

ملخص البحث

تركز الدراسة على الحيز المكاني عند نقاد القرن الثالث الهجري في ضوء نقد النقد ، الحيز الذي أثار تساؤلات عدة عند النقاد لأهميته ودوره في تقسيم الشعراء وتفضيلهم ، ولا سيما في الطبقات .. والذي كان من العناصر المهمة في بيان جودة الشعر ونوعيته الفنية ... لذا أرتأينا هنا أن نقف عند نقد النقد وبيان الأثر المكاني في شعر شعراء القرن الثالث الهجري .

كلمات مفتاحية : النقد ، البيئة المكانية ، البادية ، الحاضرة ، تقسيم الشعراء .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الشعر العربي القديم كان نتاج البادية في الجزيرة العربية ، فالجزيرة كانت حاضنة ومصدراً للشعر العربي القديم . وكان الشعر آنذاك صورة لبيئتهم البدوية وانعكاساً لتلك البيئة التي تتميز بالخشونة والصلابة من حيث مناخها ورمالها وفلاتها ونباتها وحيوانها ..ولذا نجد فرقاً شاسعاً بين شعر البادية والحضر ، لأن لكل منهما سمات تتميز عن غيرها . وثمة علاقة بين كل بيئة ونتاجها الشعري . وقد حُظيت البيئة المكانية باهتمام نقاد العرب القدامى لا سيما نقاد القرن الثالث الهجري . وأشار نقاد هذا القرن إلى أثر المكان على شعر الشاعر وجودته ورداءته أو كثرته وقلته . واختلف نقاد هذا القرن في التعامل مع هذا العنصر المكاني.

ومن أجل الوصول إلى تلك الغاية بدأنا بأبي عبيدة ومنتهياً بأبي زيد القرشي . اقتضت مادة البحث إلى عدم تقسيمه إلى مباحث ومطالب .

ختاما نرجو أن وفقنا في عرض المادة العلمية وتقديمها للقارئ لعلها ترفد المكتبة النقدية . ومن الله التوفيق .

كانت أشعار العرب وقصائدهم في الجاهلية انعكاساً لبيئتهم الصحراوية وما يحيط بها من صحراء ورمال ووديان وجبال وحشائش متنوعة تنمو في أراضيهم القاحلة والجدبة ، ثم تلك الحيوانات التي وصفت في أشعارهم .. فمن المؤكد أن هذه الأشياء تؤثر على الشاعر وقريحته الشعرية ، ويكون شعره نتاجاً لظروف بيئته ومكان عيشه. لذلك " فإذا انتقل شعب إلى بيئة أخرى تخالف بيئته الأولى وقضى فيها مدة كافية أو نشأ معه جيل جديد تربى في ظل هذا المكان الجديد ، تغير كثير من نظم حياته وملابساتها ، فيأخذ في تصويرها بأدب آخر يختلف عن السابق بمقدار ما حدث في حياته من استحالة وتغيير " . [1] ويدل على ذلك أنّ الأدب الجاهلي كان نتاج بيئته ، فأصبح خشن الألفاظ ، جزل الأسلوب واسع الخيال ، فينتقي عناصره من الصحراء ونباتها وحيوانها ومناخها ورمالها .. وكان " مبدأ الربط بين البيئة والنتاج الأدبي عميق الجذور في أذهان النقاد العرب الذين ظلوا يؤمنون إلى قناعتهم به ويعتمدون عليه في مواقف التحليل والحكم أحياناً " . [2]

من الواضح أنّ للبيئة المكانية أثراً في نفوس ساكنيها وأذواقهم خشونة ولينا . ولذلك قالوا : إن أهل البادية أكثر نشاطاً وصفاء ذهنٍ من سكان المدن ، وأهل البلاد الباردة أسرع حركة ونشاطاً من أهل البلاد الحارة ، وأنّ أهل الجبال أكثر حيوية ونقاء ذهن من أهل السهول. [3]

إنّ الشعر القديم كان نتاج بيئته الصحراوية التي أورثت الشاعر بعضاً من ملامحها القاسية التي أثرت في مزاجه ونفسيته وشاعريته ، واتاحت له صوراً بديعة يتغنى بها ، وجاء الشعر مصوراً للقيم الاجتماعية والأخلاقية أدق تصوير ، كما عبّر عن مثله العليا وعن أحاسيسه ومشاعره تعبيراً صادقاً . ولم يقتصر هذا الأمر على المضمون ، بل تجاوزه إلى الجانب الشكلي فيه ، فجاءت ألفاظه جزلة ذات جرس يحاكي طبع صاحبها . أما

([1]) أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب ، ط2 ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1973م ، 84

([2]) ملامح في تراث العرب النقدي : د.محمود عبدالله الجادر : 8 .

([3]) ينظر : تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، راجعها وعلق عليها : شوقي ضيف ، دار الهلال ، القاهرة ، مصر، 1957م : 1 / 73

شعر المحدث فهو ابن الحواضر والقرى ، وابن البيئة التي غيّر مزاجه التحضر والاختلاط ببعض العوامل الأجنبية ، لذلك شاب لغته الضعف واللين ، ووسمت معانيهِ ، بالوضوح . [4]

وهذا لايعني أنّ شعر المحدثين وأهل المدينة كله يتميّز بالضعف واللين ... فقد أبدعوا صوراً ولوحاتٍ جميلة لم نجدها في الشعر القديم ..

لقد تعامل نقاد القرن الثالث الهجري مع البيئة المكانية تعاملاً متفاوتاً فمنهم مَن جعل منها أساساً لاختيار الشعراء وتقسيمهم على أهل الوبر والمدر أي أهل البادية والحاضرة . وكان للبيئة المكانية أثر واضح في تصنيف الشعراء وتقسيمهم لدى عدد من نقاد هذا القرن ، وقد جعلوها أساساً لمنهجية تقسيم الشعراء ، لأن البيئة لها أثر كبير في ذهن الشاعر ولغته . إذ " للبيئة دور بارز في حفز القرائح وشحذ الشعور وإثارة الوجدان ، كما أن لكل بيئة سماتها الخاصة بها التي تظهر آثارها على شعرائها ، فتنطبع صورها في نفوسهم ، وتلعب دورها في تحريك أحاسيسهم . فهذه الصحراء التي عاش فيها الشاعر البدوي الجاهلي تركت أثرها فيه وأعطته سمات مميزة من سماتها " .[5] وكان للبيئة الصحراوية أثر في إحياء عملية الإبداع الشعري حتى أصبحت مصدراً لألهام الشاعر وهواجسه منذ الجاهلية ، لذلك فضلوا أهل البادية على أهل الحضر لصفاء ذهنهم ونقاء لغتهم من اللحن والضعف .. ومنهم مَن لم يعر أهمية كبيرة للمكان كأساس في تقسيم الشعراء ، بل أشاروا إليه بإشارات يسيرة .

نبدأ بأبي عبيدة الذي يعد أول مَن تنبّه في هذا القرن لأثر البيئة المكانية على قريحة الشعراء وشعرهم . وبدأ حديثه بشعراء البادية وعدّهم أشعر العرب إذ قال : " أشعر الناس أهل الوبر ، وهم امرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة .. وفي الطبقة الثانية الأعشى ، ولبيد ، وطرفة " . [6]

يدل هذا على أنّه جعل أهل الوبر والبادية أشعر الناس وهم : امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سُلمى ، والنابغة الذبياني ، وفضلهم على أهل المدر والحضر ، بقوله : " هؤلاء فحول شعراء أهل نجد الذين ذمّوا ومدحوا ، وذهبوا في الشعر كل مذهبٍ ، فأمّا أهل الحجاز ، فإنّهم الغالب عليهم الغزل " . [7]

وهذا ما يؤكد مكانة اهل نجد ومرتبتهم لدى علماء العرب ونقادها ، وأن أعلى مراتب البداوة تتمثل لديهم في أهل نجد الذين كانوا أفصح شاعرية وأكثر صفاء ذهن من سائر سكان جزيرة العرب ، بسبب هوائها الجميل ونسيمها العليل وموقعها الجبلي . [8] كما أنّ العرب لم ترو أشعار بعض الشعراء مثل أشعار أبي دؤاد وعدي بن زيد ، وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية لأنها ليست بنجدية . [9]

ويذكر أبوعبيدة في رواية أخرى أهل الحضر بقوله : " أنّ أشعرَ أهلُ المُدنِ أهلُ يثرب ، ثمّ عبد القيس ، وأشعرهم المُمَزَّق . ثمّ ثقيف وأشعرهم أُمية بن أبي الصَّلت . وأشعر هؤلاء : حسان بن ثابت " . [10]

إذ يؤكد في هذا النص أنّ أهل يثرب (المدينة) أشعر المدن وأفصحها ، وأشعر أهل يثرب هو حسان بن ثابت . فكان أبو عبيدة على علم ودراية باختلاف شعراء هاتين البيئتين من حيث مضامين أشعارهم وأساليبها ، لأختلاف

([4]) ينظر : الخصومة بين القدماء والمحدثين : عثمان موافي : 19 .

([5]) طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري : جهاد المجالي : 121 .

([6]) جمهرة أشعار العرب : لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي : تحقيق وشرح : على فاعور : 105 .

([7]) المصدر نفسه : 106 .

([8]) ينظر : تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، راجعها وعلق عليها : شوقي ضيف : 1 / 73

([9]) ينظر : الشعر والشعراء : ابن قتيبة : تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر : 1 / 238 .

([10]) الديباج : 10 – 11 .

صلتهم بمواطن البداوة والحضارة .وهنا يفضل شعراء البادية على شعراء المدينة ، لأنّ البادية تعد من مصادر إلهام الشاعر وهواجسه ..

أما الأصمعي فيعد أول مَن أشار إلى هذا العامل بعد أبي عبيدة ، فقال : " سُئل الأخطل عن شعر كُثَيِّر فقال حجازي يكد البرد " . [11] أي ينزع البرد ويطرده ، فهذه العبارة دليل لين الشعر عند كُثيّر . وجعل الأصمعي من الحيز المكاني أحد أسس الفحولة وعدَّ البداوة شرط الفحولة لدى شعراء الجاهلية وشرط الحجة لدى شعراء الإسلامية ، إذ قال : " الكميت بن زيد ليس بحجة لأنه مولد وكذلك الطرماح ، قال : وذو الرّمّة حجة لأنه بدويّ ، ولكن ليس يشبه شعره شعر العرب ، ثم قال : إلا واحدة التي تشبه شعر العرب .. " . [12]

ونقل صاحب الموشح عن الأصمعي قوله : كان " ليس الكميت بن زيد بحجةٍ ، لأن الكميت كان من أهل الكوفة ، فتعلم الغريب وروى الشعر ، وكان معلماً فلا يكون مثل أهل البدو ، وكان ذوالرّمّة معلماً بالبدو ، وكان يحضر اليمامة والبصرة كثيراً " . [13] وعلق على رواية الأصمعي بقوله : " وكان ذو الرمة أحسن حالاً عند الاصمعي من الكميت " . [14]

إذاً يحكم صاحب الموشح على ذي الرّمة بالحجة لأنه بدوي الشعر ، فضلاً عن اختلافه مع شعراء العرب في مذهبه الشعري . ويرى أن ذا الرمة أفضل منزلة من الكميت عند الأصمعي . لأن ذا الرمة كان بدويا ويشبه شعره شعر العرب من حيث فصاحته وجزالته ونقائه من اللحن والضعف والركاكة . وفي رواية أخرى يتهم الأصمعي ذا الرمة بتسرب عدوى اللحن إليه ، " وعن ابي حاتم : سمعت الأصمعي يقول : لو أدركت ذا الرمة لأشرت عليه أن يدع كثيراً من شعره ، فكان ذلك خيراً له " . [15]

وربما جاء هذا نتيجة اختلاطه بالمدن وقطنه في الريف فيما بعد ثم سبّب في فساد بعض شعره .. إلا أنه عدّ ذا الرمة حجة لأنه كان موغلاً في بداوته . [16]

نستشف من هذه النصوص على قلتها وعدم تعليلها وبيانها أول إشارات نقدية في أثر البيئة المكانية على قريحة الشاعر . فهذه الإلتفاتات تدل على بيان أثر البيئة على الشاعر ونتاجه الشعري من حيث القوة واللين عند الأصمعي . وهو أن شعر كُثير فيه لين ودفئ فهو يطرد البرد ويبعده . فلين شعره مرتبط ببيئة الحجاز ، التي نشأ فيها شعره الغزلي وحبه العذري ، وشعر الغزل مرتبط باللين .. فإشارته إلى بيئة الحجاز دليل على وعيه ومعرفته بعلاقة المكان بقوة الشعر ولينه أو بقريحة الشاعر . وبخلاف كُثيّر ، قال عن ذي الرمة حجة لأنه بدوي ، وشعر البداوة يُعرف بالخشونة والمتانة والجزالة من حيث الأسلوب والألفاظ ، فهو أقرب إلى الشعر العربي القديم الأصيل الذي تشم منه رائحة الصحراء .. [17]

إن عنصر البداوة هو ما جعل من ذي الرمة حجة لدى الأصمعي فضلاً عن اختلافه مع شعراء العرب واختلاطه بالحضر . كما أنّ العرب لم ترو أشعار بعض الشعراء لأنها لم تكن نجدية، إذ قيل أنّ " العرب لا تروي شعر أبي

([11]) فحولة الشعراء : تحقيق : ش . توري : 19 .

([12]) فحولة الشعراء : تحقيق : خفاجي والزيني : 52

([13]) الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء : المرزبانيّ ، تحقيق : علي محمد البجاوي : 206 .

([14]) المصدر نفسه : 248 .

([15]) المصدر نفسه : 240

([16]) ينظر : طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب : جهاد مجالي : 125

([17]) ينظر : النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين : 14

دؤاد وعدي بن زيد ، وذلك لأن ألفاظهما ليست بنجدية " . [18] فهذا يعني أنّ ألفاظهما ليست فيها قوة لغة نجد ومتانتها بل فيها ليونة وسهولة . بسبب اختلاطهما مع الحضر وركونهما في الريف وبُعدهما عن البادية ، لذلك لم ترِ العرب أشعارهما ، ومن ثم نزع الأصمعي عنهما صفة الفحولة . [19]

وأضاف صاحب الموشح عن هذه الرواية بقوله : " كان عدي بن زيد يسكن الحيرة ومراكز ، فلان لسانه ، وسهل منطقه ، فحُمل شيء كثير عليه " . [20] وهذه إشارة واضحة عن سكون عدي بن زيد في الحيرة وبقائه فيها ، وأثر البيئة على لسانه ومنطقه ، لذا لم يرو العلماء أشعاره .

وأشار الأصمعي في فحولته أيضاً إلى بيئة عدد من الشعراء ومكانهم دون أن يفصح عنها ، كقوله: " والأحوص مولّد نبت بقباء حتى هرم " . [21] ثمّ يقول في رواية أخرى: " كان ابن مفرّغ من مولّدي البصرة ".[22] فهذه الإشارات لا تدل إلا على أثر البيئة والحيز المكاني على لغة الشاعر وموهبته الشعرية، لأن الأصمعي كان يرى البداوة شرطاً وأساساً من اسس الفحولة . فإشارته إلى مكان ولادة الشاعر وبقائه فيه لا تدلّ إلاّ عن وعيه وإدراكه لما يقوله . فضلاً عن إشارته إلى مدينة البصرة تشير إلى اختلاط العرب مع أمم مختلفة بسبب موقعها الجغرافي ووقوعها على شاطئ البحر ، لاسيما إنّها كانت مركزاً تجارياً . فهذه الأسباب تؤدي إلى ضعف اللغة وركاكتها فضلاً عن اللحن .

وعليه فإنّ الأصمعي صاحب أول التفاتة حقيقية في ربط البيئة المكانية بقدرة الشاعر وموهبته اللغوية، ثم جاء ابن سلاّم الجمحي فجعلها أساساً نقدياً لمنهجية التقسيم في طبقاته كما أشار محمود عبدالله الجادر بقوله : أن " ابن سلام كان أسبق النقاد إلى التنبه إلى أثر البيئة في الأدب " . [23]

ويضيف أيضاً أنّ " إفراد شعراء القرى بقسم أو بكتاب مستقل عن الطبقات قد يمثل نتاج تنبُه مبكر إلى أثر النقلة والاستقرار في الشعر ، وتلك حقيقة كانت جديرة بأن تبدو واضحة الأبعاد لو أنّ ابن سلاّم عُني بتوضيح دوافعها عنده من خلال إشارة إلى أثر من آثار الاستقرار في شعر شعراء القرى كما فعل عندما ربط بين لين شعر عدي بن زيد واستقراره في الحيرة .. لعلمنا بأن الرجل كان أدرى بأن أثر الحيرة – وهي الحاضرة الوثيقة الصلة بالفرس – في لين لسان عدي بن زيد غير أثر المدينة ومكة والطائف والبحرين في لغة شعرائها ونمط شعرهم ، فهي حقيقة كانت ماثلة في ذهن ابن سلاّم وجيله من العلماء ".[24]

يبدو أنّ ابن سلاّم كان " مهيأ للتمييز بين النمط البدوي وغيره من الشعر من خلال توجهه في التقسيم ولكنه لم يكن مهيأ لتشخيص الفروق الفنية المحددة بين النمطين " . [25]

وعليه فإنّ ابن سلاّم الجمحي هو أول مَن تنبّه إلى أثر البيئة المكانية على الخصائص الفنية لدى الشاعر ، بعد إشارات كل من أبي عبيدة والأصمعي وهو أول مَن تناول البيئة المكانية وربطها بقرائح الشعراء

([18]) الشعر والشعراء : ابن قتيبة : تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر : 1 / 238 .
([19]) ينظر : الموشح : المرزباني : 88 .
([20]) المصدر نفسه : 87 .
([21]) فحولة الشعراء : تحقيق : توري : 20 وينظر : فحولة الشعراء : تحقيق : خفاجي والزيني : 51 .
([22]) المصدر نفسه : 17 .
([23]) الثعالبي ناقداً وأديباً : محمود الجادر : 193
([24]) ملامح في تراث العرب النقدي : د.محمود عبدالله الجادر : 20 – 21 .
([25]) المصدر نفسه : 21 .

ولغتهم قوة ولينا بطريقة منهجية وعلمية . وأتخذ من المكان أساساً نقديا لتقسيم شعرائه وإطاراً عاماً لإدخال طبقاته وفرز شعرائه فيه . [26] ثم فصل شعراء القرى العربية عن شعراء الطبقات العشر الجاهلية لأن أشعارهم تتميز باللين والرقة بخلاف أشعار أهل البادية التي تتميز بالخشونة والجزالة .

ولما وزع ابن سلّام الشعراء بين الجاهلية والإسلام وقسمهم إلى طبقات ، وجد أنّ هناك شعراء لم يصبحوا شعراء للعرب كافة ، بل ظلوا متصلين كل بقريته وهم ما يمكن أن نسميهم (بالشعراء الإقليميين) ، فجمعهم في باب شعراء القرى العربية : مكة والمدينة والطائف والبحرين واليمامة ، هذه الظاهرة من مخلفات الروح الجاهلية ، روح الإقليم والقبلية التي لم يستطع الإسلام أن يمحوها فظلت مصدراً للفتن والقلائل في تاريخ العرب السياسي وللمفارقات والتلوين في تاريخهم الأدبي . ومع هذا فابن سلّام يفاضل بين شعراء كل قرية فيجعل من حسان أشعر المدنيين ومن عبدالله بن زعبري أبرع المكيين وأمية بن أبي الصلت أشعر شعراء الطائف .. [27]

ويرد محمود عبدالله الجادر على أدعاء مندور بقوله : على " أنّ الشعراء الذين ذكرهم ابن سلاّم في قسم شعراء القرى ما كانوا كلهم شعراء (إقليميين) ، وأنّ الشعراء الذين ذكرهم في الطبقات العشر ما كانوا كلهم شعراء (للعرب كافة) ، وحسبنا من القول بأن قسم شعراء القرى ضم ذكر حسان بن ثابت وقيس بن الخطيم وأمية بن أبي الصلت والمثقب العبدي وهم عند العرب كافة ، بينما ضمت طبقات الفحول ذكر مغمورين من أمثال أوس بن غلفاء وضابئ بن الحارث وحريث بن مخفض .. ". [28]

ونرى أنّ رأي محمد مندور ليس دقيقاً بكونه أنّ شعراء القرى العربية لم يتمكنوا من أن يصبحوا شعراء للعرب بل ظلوا لقبائلهم وقراهم ، لأن شاعراً مثل حسان بن ثابت كان في الجاهلية شاعراً للغساسنة ولما جاء الاسلام أصبح شاعرا للرسول (ﷺ) حتى لقب به . وكذلك يرى د.مندور أن التقسيم الإقليمي والقبلي ظاهرة من مخلفات العصر الجاهلية وأنّ الاسلام لم يستطيع أن يمحو هذه الظاهرة ، وبذلك ينكر د.مندور حقيقة أثر البيئة المكانية على الشعر والشاعر . كأنّ د. مندور لم يحالفه الحظ في بيان وتفسير الأثر البيئي على ذهنية الشاعر وقريحته ومخيلته لأن البيئة البدوية والصحراوية تختلف عن البيئة الحضرية والقروية من حيث الفخامة واللين ومن حيث الشكل والمضمون ، وحتى من حيث الأغراض الشعرية ، فالأغراض الموجودة في البادية لا تشبه الأغراض الشعرية في الحاضرة والقرى .

وكان ابن سلّام على يقين من أهمية البيئة المكانية في تحديد الملامح الشاعرية عند الشعراء إذ " يبدو للبيئة الحضرية (شعراء القرى العربية) أثراً في ليونة أشعار هؤلاء الذين عاشوا في هذه القرى قياساً إلى صلابة شعر الجاهليين من أهل البادية وخشونته " [29]

لذلك أفرد قسمًا لشعراء القرى العربية بعد طبقات العشر الجاهلية دون أن يذكر ذكر الطبقة معهم، ويذهب محمود عبدالله الجادر إلى أنّ قسم شعراء القرى العربية " قد يكون مؤلفاً برأسه من مؤلفات ابن سلّام اختلط بنسخة الطبقات التي وصلت إلينا أو أقحم عليها ، على أنّ هذا لا يدعونا بأية حال إلى الغاء قيمة المضمون

([26]) ينظر : النقد المنهجي عند العرب : محمد مندور : 13 .

([27]) ينظر : النقد المنهجي عندالعرب : محمد مندور : 13 ، وينظر مناهج التأليف عند علماء العرب : مصطفى الشكعة : 340-341

([28]) ملامح في تراث العرب النقدي : 19 .

([29]) محاضرات في تاريخ النقد عند العرب : ابتسام مرهون الصفار ، وناصر حلاوي : 93 .

النقدي الذي ينطوي عليه افراد شعراء القرى بدراسة مستقلة تحول دون ذكر أي منهم ضمن الطبقات الجاهليين العشر ، فنحن نرى في ذلك إشارة حاسمة إلى تقرير ملامح نظر (بيئي) انتهى عند ابن سلاّم إلى هذا المسلك من الفصل بين شعراء البادية وشعراء الحاضرة في النظر النقدي " . [30]

وقال أنّ شعراء القرى العربية " خمس : المدينة ، ومكة ، والطائف ، واليمامة ، والبحرين . وأشعرُهُن قريةَ المدينة " . [31] واختار من شعراء القرى العربية ومشهوريهم (22) شاعراً ووزعهم على القرى العربية منها (5) لشعراء المدينة و(9) لشعراء مكّة و(5) لشعراء الطائف و(3) لشعراء البحرين . ولم يخصص لشعراء اليمامة شاعراً لأن ليس فيهم شاعراً مشهوراً . [32] فضلاً عن شعراء اليهود الذي جمعهم في طبقتهم على أساس العقيدة والديانة إلا أنّه أشار إلى بيئتهم ومكان سكناهم وهي المدينة وأطرافها .

وقال في شعراء المدينة : " شعراؤُها الفحولُ خمسة : ثلاثة من الخزرج ، واثنان من الأوس ... وأشعرهم حسّان بن ثابت . وهو كثير الشعر جيّده ، وقد حُمل عليه ما لم يحمل على أحد . لمّا تعاضهت قريش واستبّتْ ، وضعوا عليه أشعارًا كثيرة لا تُنَقّى " . [33]

وفضل شعراء المدينة على بقية شعراء القرى العربية لأن ابن سلاّم اعتبر " المدينة أشعر هذه القرى العربية كافة ، ولعل ذلك لصلة (المدينة) القوية بالقبائل ولكثرة الصراع القبلي الذي يجر إلى كثير من الحروب الباعثة على الشعر " . [34] وقد ربط بين البيئة وما يحدث من حروب ونائرات ومنازعات بين الناس وكثرة الشعر ، وقال في شعراء الطائف بقوله : " وبالطائف شعر وليس بكثير ، وإنما كان يَكثُر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوسِ والخزرج ، أو قوم يُغيرون ويُغار عليهم . والذي قلّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم نائرة ، ولم يُحاربوا . وذلك الذي قلّل شعر عُمَان . وأهل الطائف في طَرَفٍ " . [35]

وقد نجح ابن سلاّم في ربطه بين كثرة الشعر والحروب بخلاف مَن ناقضه من الباحثين المعاصرين[36] لأن للظواهر البيئية أثراً في كثرة الشعر وقلته . وأنّ أهل القرى أكثر استقراراً من أهل البادية لأنّهم ينشغلون بالزراعة والتجارة وهذا ما يبعدهم عن الحروب وقول الشعر بينما في البادية تكثر الحروب والمشاحنات وتُغير بعضهم على بعضهم الآخر ، وهذا ما يؤدي إلى قول الشعر لأن الشعراء يقولون الشعرفي الحرب في الأغراض الشعرية المختلفة مثل المديح والفخر والهجاء والرثاء والحماسة والوصف وغيرها ..

ولاحظ أيضاً أنّ أثر البيئات العربية المشحونة بالحروب والثارات على نتاج الشعر ووفرته . وأنّ بيئات الصحراء والبادية بما فيها من الحروب والغارات المتواصلة تثير العواطف والوجدان ، وتدعو إلى هيجان النفوس ، بينما ينعدم هذا الباعث والشعور في القرى الهادئة والمطمئنة . ويرى جهاد المجالي أنّ " بُعد أهل الطائف وعزلتها على جبل جعلها قليلة الاحتكاك بغيرها من القبائل ، فلم يكن لها وقائع مشهورة، وهذا الذي قلل شعرها " . [37]

([30]) ملامح في تراث العرب النقدي : د. محمود عبدالله الجادر : 18 .

([31]) طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلاّم الجمحي : تحقيق : محمود محمد شاكر : 1 / 215

([32]) ينظر : المصدر نفسه : 1 / 215 – 277

([33]) المصدر نفسه : 1 / 215

([34]) مقالات في تاريخ النقد العربي : د.داود سلوم : 117 .

([35]) طبقات فحول الشعراء : 1 / 259

([36]) ينظر : النقد المنهجي عندالعرب : محمد مندور : 21 .

([37]) طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري : جهاد المجالي : 126

وقال : " وبمكَّةَ شعراء فأبرعهم شعراً عبدالله بن الزِّبَعْرَى بن قيس بن عدي " . [38] وبدأ حديثه عن شعراء البحرين بقوله : " وفي البحرين شعرٌ كثيرٌ جيدٌ وفصاحةٌ " . [39] وفي نهاية طبقاته قال : " ولا أعرف باليمامة شاعراً مذكوراً " . [40]

والغريب أنه ذكر اليمامة ولم يذكر شاعرا فيها ، يبدو لعدم شهرة شعرائها ، وبهذا يناقض دعوته التي دعا بها إلى الشهرة في مقدمة كتابه .. وبتخصيص هذه المساحة لشعراء القرى " كأنه ينظر إلى أثر البيئة من الشعر والشاعر ، وربما لشعوره أن الحواضر العربية في مستوى موضوعها ومفردها وبواعث أغراضها تختلف عن موضوعات ولغة وأغراض الصحراء " . [41]

ويرى محمود عبدالله الجادر أنّ " قسم شعراء القرى عند ابن سلاّم أقدم إشارة إلى التمييز بين النمط البدوي وسواه من الشعر الجاهلي " . [42] إنّ ابن سلاّم أكثر منهجية بطرحه ومعالجته لأثر البيئة المكانية على الشاعر ، لا سيما عند شعراء الجاهلية .

يبدو أنّ تخصيص مساحة لشعراء يهود المدينة يدل على أثر البيئة المكانية وفاعليتها على شعر هؤلاء الشعراء ..لأنه وجد فرقا كبيراً بين لغتهم الشعرية وأسلوب نظمهم من حيث الشكل والمضمون مع شعراء العرب الجاهلية ، كما أشار إليهم بقوله : " وفي يهود المدينة وأكنافها شعر جيد " . [43] إنّ إشارة ابن سلاّم إلى بيئة هؤلاء الشعراء وهي أطراف المدينة فضلاً عن دينهم لا تدل إلاّ على أثر تلك البيئة على أشعارهم الذي يتميزون بسمات شعراء القرى العربية لا سيما شعراء المدينة . وقال عن أهل القرى : " وأهل القرى ألطف نظراً من أهل البدو ، وكانوا يكتبون ، لجوارهم أهل الكتاب " . [44]

وبعد ذكره لشعراء القرى العربية نجد أنّه أشار إلى أثر البيئة المكانية لدى الشاعر سُحيم بن وثيل الرِّياحي بقوله : " وكان الغالب عليه البداء والخُشنة " . [45] فعلّل خشونة شعر سُحيم للبادية بخلاف ليونة لسان عدي بن زيد ومنطقه الذي اختلف سمات شعره باختلاف بيئته حيث قال فيه : " كان يسكن الحيرة ويراكن الرِّيف، فلان لسانه وسهل منطقه ، فحمل عليه شيء كثير ، وتخليصه شديد، واضطرب فيه خلف الأحمر ، وخلَّط فيه المفضَّل فأكثر " . [46] وعليه فإنّ " شعر البادية صورة صادقة للحياة البدوية والبيئة الصحراوية في لفظه وصوره ومعانيه .. أما شعر أهل الحواضر أو القرى العربية فهو صورة صادقة لبيئة التي أفسدها التحضر والاختلاط ببعض المؤثرات الأجنبية ، لذا ففي لغته ضعف ولين " . [47]

([38]) طبقات فحول الشعراء : 1 / 233
([39]) المصدر نفسه : 1 / 271
([40]) المصدر نفسه : 1 / 277
([41]) مقالات في تاريخ النقد العربي : د.داود سلوم : 117 .
([42]) ملامح في تراث العرب النقدي : د.محمود عبدالله الجادر : 27 – 28 .
([43]) طبقات فحول الشعراء : 1 / 279 .
([44]) المصدر نفسه : 1 / 68
([45]) المصدر نفسه : 2 / 576 – 577 .
([46]) المصدر نفسه : 1 / 140 .
([47]) الخصومة بين القدماء والمحدثين : عثمان موافي : 19 .

إذاً تنبّه ابن سلاّم على أثر البيئة في الشعر وميّز بين شعر البادية وشعر الحضر ، لأن شعر البادية فيه من القوة وفخامة الألفاظ ما يميزه من شعر الحضر الذي فيه لين وسهولة . إذ ربط ليونة الشعر عدي بمراكنة الريف وسكونه واختلاط اهله . وقال في أشعار قريش بأنّها : " اشعار فيها لين ، فتشكل بعض الإشكال " . [48] من خلال هاتين الروايتين نستنتج بأن ابن سلاّم كان مدركاً لأهمية تميز أهل البدو عن أهل القرى ، لأن أهل القرى يتميزون بليونة أشعارهم وسهولة منطقهم . وهذا يؤدي إلى ظاهرة أخرى وهي ظاهرة الوضع والانتحال الذي قال عن شعر عدي بأن ليونة لسانه وسهولة منطقه جعلاه أن يُحمَل عليه شعر كثير ويضطرب أشعاره . وكذلك أشعار قريش قال عنها فتشكل بعض الاشكال .

وأشار إلى قلة الشعر عند بعض القبائل بقوله : " والذي قلل شعر قريش انه لم يكن بينهم نائرة ولم يحاربوا وذلك الذي قلل شعر عمان وأهل الطائف في طرف " [49] ، يعلل ابن سلاّم قلة الشعر عند هذه القرى لعدم وجود الحروب بينهم وهي أسباب ميزت شعر القرى عن البدو لذا خصّهم بقسم مستقل .

وتنكر بنت الشاطئ منهجية تقسيم الشعراء الجاهلية بين البدو والحضر لدى ابن سلاّم وتقول : في النهاية " نخرج من جهد المقارنة بين شعر البدو وشعر الحضر في الجاهلية ، بعطاء قليل لا يزيد على بعض ظواهر شكلية وفروق لفظية وأسلوبية لا تعطي قيماً فنية أو خصائص جوهرية ذات بال . لأننا نقيس ما بين البداوة والحضارة بمفهوم عصرنا ، فتنسى أنّ الشاعر الجاهلي في مكة أو يثرب والطائف . لم يركب سيارة ويستضئ بغاز أو كهرباء ، حين كان معاصره في صميم البادية ، يركب الناقة ويوقد النار ".[50]

نخالف بنت الشاطئ في دعوتها إلى أنّ شعر البدو والحضر ليس بينهما فرق كبير ، بل إنّ بينهما فرق كبير وجوهري من حيث الشكل والمضمون ، لأن شعر البدو تتميّز بالخشونة والشدة ، بينما يتميّز شعر الحضر بالرقة واللطافة وكان أهل القرى ألطف نظراً واسلوباً من أهل البدو ، فضلاً أنّ هناك فرق في موضوعاتهم الشعرية .. ثم تضع تقسيماً بدل هذا التقسيم بقولها : " اتجهت محاولتي في بيئات الشعر الجاهلي إلى التمييز بين : شاعر القبيلة ، وشاعر البلاط ، وشعراء الصعاليك . فبدت فروق جوهرية في وظيفة الشعر ومكان الشاعر ، وفروق فنية ذات خطر ، في ذاتية الشاعر الفردية والجماعية ، وفي مكانته ورسالته ، وفي فنون للشعر تروج في بيئة دون أخرى ، مؤكدةً ما بين الفن والحياة من حتمي الصلات " .[51] نؤيد هذا التقسيم لدى بنت الشاطئ ، لأن تقسيمها منهجي لكل من البيئات العربية ، وكل بيئة من هذه البيئات الثلاث تتميّز بسماتها وخصائصها عن غيرها ، إذ تتميّز بيئة شعراء الصعاليك عن بيئة شعراء البلاط والقبيلة ، لم يبذل ابن سلاّم جهداً لدراسة أشعارهم وبيان موضوعاتهم ولم يخصص لهم مكاناً في طبقاته ، لعله أهملهم لمكانتهم الاجتماعية عند العرب .

ويقول في نص آخر : إنّ " علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس بن حجر ، و أهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأنّ أهل الحجاز والبادية يقدمون زهيرا والنابغة " . [52]

إنّ اختلاف العلماء في اختيار شاعرهم المفضل لا تدل إلا على اختلاف البيئات الأدبية في ذلك الوقت .

([48]) طبقات فحول الشعراء : 1 / 245

([49]) المصدر نفسه : 1 / 259.

([50]) قيم جديدة للأدب العربي القديم والحديث : د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ : 24 .

([51]) المصدر نفسه : 24 .

([52]) المصدر نفسه : 1 / 52

ويقول في موضع آخر : " وكان كُثيّر شاعر أهلِ الحجاز ، وإنّهم ليقدمونه على بعض مَن قدَّمنا عليه . وهو شاعر فحل ولكنه منقوص حظَّه بالعراق " . [53] إذاً هناك اختلاف بين البيئات العربية في اختيار شاعرهم وتفضيله على غيره .

وخصص ابن سلاّم الطبقة السادسة الإسلامية لبيئة الحجاز وهم أربعة رهط : ابن قيس الرقيات والأحوص وجميل ونُصيب . [54] إنّ إشارة ابن سلاّم إلى هؤلاء الشعراء دلالة على أثر بيئة الحجاز في شعرهم . إلا أنّ ابن سلاّم لم يجد ما يميزهم عن بقية الطبقات الإسلامية من حيث الملامح الفنية وكذلك لم يجد ما يكفي من التشابه بينهم وبين شعراء القرى العربية ، لذلك وضعهم ضمن الطبقات الإسلامية.

و جاء منهج دعبل الخزاعي في انتقاء الشعراء وتقسيمهم على أساس البيئة المكانية أي المدن والأقاليم ، لأنه وجد أن هناك صلة بين الشاعر وبيئته من حيث قريحته الشعرية وموهبته الفنية . لذلك جعل من المكان الأساس الأول والأساسي في تقسيم شعرائه . ويتبين من خلال الروايات القديمة الواردة أن كتابه طبقات الشعراء – المفقود – جاء موزعاً على أساس المدن والأقاليم منها كتاب (شعراء بغداد) و(شعراء اليمامة) و(وشعراء البصرة) كما أن هناك ذكر لشعراء الكوفة والحجاز والشام و خراسان والأنبار .. [55] وكان مدركاً للتميز بين بيئات الأقاليم لذا فصّل شعراء كل أقليم عن غيرهم ، لأن بيئة الحجاز تختلف عن بيئة الشام وبيئة العراق ، لذلك نجد كثرة الشعر وتنوعه وجودته تختلف من بيئة إلى بيئة أخرى ، كما نتجت بيئة الحجاز الشعر الغزل بنوعيها العذري والصريح ونتجت بيئة الشام شعر المديح للملوك أما بيئة العراق فقد نتجت شعر الهجاء والفخر والمديح ومنها النقائض .. [56]

ربما لو وصل إلينا كتابه كاملاً لتبيّن ملامح البيئة المكانية في منهجية تقسيمه للشعراء ..

أما الجاحظ فقد ردّ على ابن سلاّم بربطه للحروب والنزاعات بين الناس بكثرة الشعر ، ومثل بكثرة شعر المدينة لأن بين الأوس والخزرج حرب دامت سنوات ، وقلل شعر الطائف ومكّة لعدم الحروب والنائرات ، إذ قال : " وبنو حنيفة مع كثرة عددهم ، وشِدّةِ بأسهم ، وكثرة وقائعهم ، وحسد العرب لهم على دارهم وتخومهم وسط أعدائهم ، حتى كأنهم وحدهم يعدلون بكراً كلها ، ومع ذلك لم نرَ قبيلة قط أقل شعراً منهم " . [57]

وفي نهاية هذه الرواية ينسب الجاحظ كثرة الشعر وندرته إلى عوامل ثلاثة منها البيئة المكانية ، بقوله : " وإنما ذلك عن قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها " . [58]

ويرى محمود عبدالله الجادر أنّ " الجاحظ في نقده هذا متجهاً إلى رصد آثار عوامل مختلفة في وفرة الشعر أو ندرته ، وقد رأينا أنّه عدّ البيئة المكانية واحداً من تلك العوامل التي حددها ب (الحظوظ والغرائز) و(البلاد) و(العراق) بتعبير آخر أنّه حددها ب(الطبع) و(المكان) و(الجنس) " . [59]

([53]) طبقات فحول الشعراء : 2 / 540

([54]) ينظر : المصدر نفسه : 2 / 647 – 648

([55]) ينظر : نصوص من كتاب طبقات الشعراء لدعبل الخزاعي : محمد عبد الجبار المعيبد: 111 – 124

([56]) ينظر : مفاهيم في الأدب والنقد : حكمت علي الأوسي : 47-64 .

([57]) الحيوان :أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون : 4 / 380

([58]) المصدر نفسه : 4 / 381 .

ويبدي الجاحظ في نص آخر استغرابه بقوله : " وشأن عبد القيس عجب ، وذلك أنّهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين ، فقرقة وقعت بعمان وشق عمان ، وهم خطباء العرب ، وفرقة وقعت إلى بحرين وشق البحرين ، وهم من أشعر قبيل في العرب ، ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سُرّة البادية وفي معدن الفصاحة، وهذا عجب " . [60]

فالجاحظ في هذا النص " يوحي بإيمانه غير المعلن هنا بأثر البادية في الشعر ، فهو حين يعجب من تدفق عبد القيس بالخطابة وبالشعر بعد نزوحهم من سرة البادية التي ما كانوا فيها خطباء ولا شعراء يبدو وكأنه يفترض ألا يكون لهم خطابة ولا شعر بعد ذلك أبداً ، فالبادية هي مهد الخطابة والشعر، أما أن يقول بنو عبد القيس خطباً وشعراً بعد أن استقروا في عمان والبحرين فأمر عجب !! فإذا كان ذلك هو توجه الجاحظ المعاصر لابن سلّام ، صح لدينا أن نطمئن تماماً إلى أنّ قسم شعراء القرى العربية عند الأخير يمثل إشارة إلى قناعة متداولة بين العلماء بأن البادية غير القرية وغير الحاضرة في إنتاج الأدب، والشعر بوجه خاص " . [61]

وهذا ما يؤكده قوله : " والقضية التي لا أحتشم منها، ولا أهاب الخصومة فيها: أنّ عامّة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب، أشعر من عامّة شعراء الأمصار والقرى، من المولدة والنابتة. وليس ذلك بواجب لهم في كلّ ما قالوه . وقد رأيت ناسا منه يبهرجون أشعار المولّدين، ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط إلاّ في رواية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى. ولو كان له بصر لعرف موضع الجيّد ممّن كان، وفي أيّ زمان كان " . [62]

إذ لاحظ الجاحظ في هذا النص تفوق شعراء الأعراب وأهل البادية على الشعراء المولدة وأهل القرى والمدن في الشعر عامة وليس في كل الأحوال . دون أن يبين السبب في ذلك ، ربما أصدر هذا الحكم في أثناء خصومته مع الشعوبية وكرهه لهم .ثم يقول : " إن الفرق بين المولّد والأعرابي: أنّ المولّد يقول بنشاطه وجمع باله الأبيات اللاحقة بأشعار أهل البدو، فإذا أمعن انحلّت قوّته، واضطرب كلامه " . [63]

ويعقد الجاحظ موازنة بين شعر المولدين وشعر الأعراب ، فالمولدة تقول الشعر بجهده الفردي واعتماده على نماذج الاعراب والبدو ، وإذا انهكت قواه اضطرب في كلامه ..

أما ابن قتيبة فقد ألغى عاملي الزمان والمكان في مقدمة كتابه الشعر والشعراء وجعل مكانهما جودة الشعر بقوله : " ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصَّ به قوما دون قومٍ ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر " . [64]

يقصد ابن قتيبة هنا أنّ الله لم يخصص قوماً دون قومٍ في الشعر والبلاغة والأدب ، كما علق حكمت الأوسي على هذا النص بقوله : أنّ " الشعر البدوي والحضري سواء أمام المقاييس النقدية عنده . وإنما العبرة بالإجادة لا بشخصية مَن يقول الشعر ولا بأنتمائه القومي أو المكاني " . [65]

([59]) فاعلية المكان في رؤية الناقد العربي القديم : أ.د.محمود عبد الله الجادر : مجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ، العدد : 68 ، 2005م : 21

([60]) البيان والتبين : 1 / 96 – 97

([61]) فاعلية المكان في رؤية الناقد العربي القديم : 22

([62]) الحيوان : الجاحظ : 3 / 130 .

([63]) المصدر نفسه : 3 / 132 .

([64]) الشعر والشعراء : : 1 / 63

([65]) مفاهيم في الأدب والنقد : 88 .

لذلك لم يجعل من البيئة المكانية أساساً لتقسيم شعرائه كما فعل ابن سلاّم من قبله، لأنه انشغل بأسس ومعايير نقدية أخرى في تصنيف طبقاته . ولكننا وجدنا أشارات واضحة لأثر البيئة المكانية على قريحة الشاعر عنده لما ترجم لشعراء طبقاته ، وذكر في ترجمة أمرؤ القيس بقوله : " وهو من أهل نجدٍ ، من الطبقة الأولى " . [66] إنّ بيئة نجد تُعرف بفصاحة لغتها وأصالتها . وربما من أسباب تأخر الأعشى عند العلماء وعنده أيضاً أنه " كان يفدُ على ملوك فارس ، ولذلك كثرت الفارسية في شعره " . [67] يبدو أنّ البيئة الفارسية من أسباب فساد شعر الشاعر وتأخير مرتبته ، لأنّها تخالف البيئة العربية .

وذكر في ترجمة زياد الأعجم وارتباطه بالبيئة الفارسية وأثرها على فساد لسانه ولغته الشعرية بقوله : " وكان ينزل إصطَخْرَ ، وكانت فيهِ لُكنةٌ ، فلذلك قيل له الأعجم " . [68] ثمّ قال في رواية أخرى : " وهو كثير اللحن في شعره ، ولهذا قيل له الأعجمُ ، ولفساد لسانه بفارس " .[69] إذاً إنّ البيئة الأعجمية تفسد لسان الشاعر ولغته الشعرية كما فسد لسان زياد ولقب بالأعجم ، مخالفاً ما قاله الأصمعي عنه في فصاحته وعدم لحنه في فحولته ، بقوله عنه : " حجة لم يتعلق عليه بلحن " . [70] وعدّ فساد لغة عدي بن زيد لاحتكاكه بالمدينة والريف وبقائه فيها ، كقوله : " وكان يسكن بالحيرة ، ويدخل الأرياف ، فثقُل لسانه، واحتُمِل عنه شيء كثيرٌ جداً، وعلماؤنا لا يرون شعرهُ حُجّةً " . [71] لذلك لا يرون شعره حجة ، لأنهم وجدوا في شعره ما يخالف شعر العرب من لينٍ وضعفٍ ونحل .

ويقول صاحب الأغاني عن عدي بن زيد : " وليس ممن يُعدّ في الفحول ، وهو قروي ، وكانوا قد أخذوا عليه أشياء عُيب فيها ، وكان الأصمعي وأبو عبيدة يقولان : عدي بن زيد في الشعراء بمنزلة سهيل في النجوم ، يعارضها ولا يجري معها مجراها . وكذلك كان عندهم أمية بن أبي الصلت " . [72]

ويبدو أنّ " ما يميز أشعار أهل البادية من غيرهم من الشعراء الذين عرفت أشعارهم بعض مؤثرات الحضارية الخاصة ، كعدي بن زيد أحد أبناء ملوك الحيرة ، وكان على صلة قوية بالفرس فلان لسانه وضعف أسلوبه " . [73]

وعبر ابن جني عن نزوع العلماء نحو شعر البادية ونفورهم من شعر الريف والمدينة بقوله : " ولو عُلم أن أهل مدينةٍ باقون على فصاحتهم ، ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل

([66]) الشعر والشعراء : 1 / 105 .
([67]) المصدر نفسه : 1 / 258 .
([68])المصدر نفسه : 1 / 430
([69]) المصدر نفسه : 1 / 433
([70]) فحولة الشعراء : تحقيق توري : 16
([71]) الشعر والشعراء : 1 / 225
([72]) الأغاني : ابي فرج الأصبهاني ، تحقيق : سمير جابر : 2 / 89 .
([73]) فصول في النقد العربي وقضاياه : محمد خير شيخ موسى : 18 .

الوبر ، وكذلك أيضاً لو فشا في أهل الوبر ما شاع في لغة أهل المدر من إضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاضِ عادة الفصاحة وانتشارها ، لوجب رفض لغتها ، وترك تلقّي ما يرد عنها " . [74]

إنّ تفضيل علماء اللغة ورواة الشعر لنموذج شعر الأعراب والبدو كان بداعي أصالة لغتهم ونقاء بيئتهم من كل شائبة وعناصر دخيلة . وكانوا يبحثون وراء الشواهد اللغوية والتراكيب النحوية وكل غريب من الشعر.. ولذلك فضلوا شعراء الجاهلية على شعراء الإسلامية ، والإسلامية على شعراء المحدثين .. كما فضلوا شعراء البدو على المدن والحضر ، وانتقدوا المدن والأرياف لخروجهم عن المألوف وفساد لغتهم وليونتها، كعدي بن زيد وأبي دؤاد ..

وقد عدَّ البيئة المكانية والطبيعة الجميلة من بواعث قول الشعر ، وذكر قول كُثيِّر لما سُئِل ، " إذا عَسُر عليك قول الشعر ؟ قال : أطوف في الرِّباع المخلية والرياض المعشبة فيسهل عليَّ أرصَنهُ ، ويُسرِع إليَّ أحسنه " . [75]

وجعل في بواعث الشعر أيضاً " الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخَضر الخالي " . [76]

ومما ينبغي الإشارة إليه " أن تأثير المكان على شاعرية الشاعر أمر فردي لا يتفق فيه جميع الشعراء ، فمنهم مَن تثيره إلى شعر البادية ومنهم مَن تثيره الرياض الخضراء ومنهم مَن تثيره الأماكن المرتفعة ومنهم مَن تثيره الحرب ، ومنهم مَن يثيره الأستقرار والهدوء تبعاً لأختلاف طبائع الشعراء " . [77]

إنّ بعض دارسي الشعر منذ القدم كانوا يؤمنون بأثر البيئة المكانية على شاعرية الشعراء من حيث جودة الشعر وكثرتها وإبداعها وتفننها في شتى الأغراض الشعرية . وذكروا أوصافاً معينة للبيئات المختلفة التي يأتى فيها الشعر دون غيرها . وهذه البيئات والأماكن بما لها من صفات معينة تهيء النفس وتبعث ملكتها الإبداعية . وتختلف هذه الأماكن بفلاتها وصحرائها وسعتها وهدوئها وجمالها وخضارها .. وتؤدي لبواعث الشعر من شاعر إلى آخر وتحفز شاعرية الشاعر وتزيد من قدرة الشاعر وإمكانيته . فهذه البيئات تعطي الشاعر أرتياحاً وقوة لقول الشعر وتكون قادرة على خلق الصورة وإبداعها وتفننها .. فهي عند الفرزدق : شعاب الجبال ، وبطون الأودية ، والأماكن الخربة الخالية . [78] أمّا جرير فقد كان يبحث عن أماكن عالية وخالية من أصوات وضجيج الناس وكان يصعد سطح منزله منفرداً إذا أراد أن ينظم رغبة في الخلوة بنفسه . [79] أمّا كُثير فقد كان يبحث عن الرباع المخيلة والرياض المعشبة التي يسهل عليه فيها أحسن الشعر ويسرع عليه أرصنه . [80]

ويرى زهير بن أبي سلمى أنّ البادية هي من أهم بواعث الشعر وروافده ، ولما اشتكاه النابغة الذبياني لصعوبة قول الشعر ، فقال له : " أخرُج بنا إلى البريّة ، فإن الشعر برّيٌّ " . [81]

([74]) الخصائص : أبي الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : عبدالحميد هنداوي ،ط1 ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، (د.ت) : 393/1

([75]) الشعر والشعراء : 1 / 79

([76]) المصدر نفسه : 1 / 79

([77]) النقد في القرن الأول الهجري بيئاته واتجاهاته وقضاياه : حمود بن محمد بن منصور الصميلي ، اطروحة الدكتوراه ، في كلية اللغة العربية ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية : 1414 هـ – 1994م : 347

([78]) ينظر : العمدة : 1 / 207 .

([79]) ينظر : العمدة : 1 / 207 .

([80]) ينظر : المصدر نفسه : 1 / 206 .

([81]) الموشح : محمد حسين شمس الدين : 60 .

وخصص ابن قتيبة مساحة لطائفة من شعراء هذيل في كتابه الشعروالشعراء وترجم لهم بشكل متواصل ، وبدأ بأبي ذؤيب وانتهى بأبي كبير الهذلي . وكاد أن يميزهم عن شعراء الجاهلية بوضع عنوان لهم . [82] وعاش شعراء بني هذيل في " المناطق الجبلية فتسللت آثار وجوه النشاط الحياتي فيها إلى أشعارهم دون أن تمس الجوهر البدوي لبناء قصائدهم بشكل يستدعي النظر " . [83]

إنّ تخصيص وإفراد ابن قتيبة لهؤلاء الشعراء في كتابه دلالة على منزلة هؤلاء الشعراء عنده وادراكه لأثر البيئة الصحراوية في هؤلاء الشعراء ونتاجهم الشعري من حيث الجودة والكثرة. و سُئل حسان بن ثابت عن أشعر الناس ؟ قال : " حياً أو رجلاً ؟ قال : حياً . قال : أشعر الناس حياً هذيل ، وأشعر هذيل غير مدافع أبو ذؤيب " . [84]

وكذلك ابن المعتز لم يعن بأثر البيئة على قريحة الشعراء ولم يقسم الشعراء على أساسها ، بل إنّ له إشارات يسيرة في طبقاته عن أثر البيئة المكانية ، وقال في العنبر الأصبهاني : " وكان علي بن عاصم هذا من الشعراء المجيدين . وكان يسكن الجبل . وكان قد دخل العراق ومدح ملوكها . ولو أقام بها لخضعت له رقاب الشعراء : . [85] أي أنه أشعر من شعراء العراق لأنه يعيش في الجبال. ويبدو أن ساكني الجبال يتمتعون بشاعرية ونقاء ذهن كما مرّ ذكره .

وفي حديثه عن عمارة بن عقيل أشار إلى بيئتي البادية والحضر ، وأن اختلاط الحضر يفسد شعر الشاعر وفصاحته ، الذي ذكر أن عمارة بن عقيل لما قدم من البادية إلى الحضر كان أفصح الناس وأشعر أهل زمانه وكان نقي الشعر صحيح الدين ، ولما بقي في المدينة وعاشرهم أفسدوا عليه دينه وفصاحته.[86] وهذا يدل على أنه ميّز بين الشاعر البدوي والمولد لأن البدوي : " ابن الفطرة والصحراء والطبيعة ، والسليقة الصافية الخالصة التي لا تشوبها شوائب ، أما الشاعر المولد – في نظره – فلا يمثل الطبيعة والسليقة الخالصة ، لأنّه ليس ابن البيئة الخالصة ، والفطرة العربية التي تكسب صاحبها صفات الأصالة والبداوة في نظم الشعر وإنشاده " . [87]

وأشار ابن المعتز في طبقاته إلى فئة من الشعراء المحدثين الذين يتمتعون بسمات شعراء الأعراب، ويذهبون في أشعارهم إلى نمط الاعراب والبادية ، وأدرك أنّ البادية قد طبعت على أشعارهم وأثرت على أساليبهم ونمطهم الشعري ، منهم: البطين وابن ميادة والحارثي . وقال في ترجمة البطين : " كان جيد الشعر محكمه ، يشبه نمطه نمط الأعراب " . [88] وفي حديثه عن ابن ميادة قال: " كان ابن ميادة جيد الغزل ، ونمطه نمط الأعراب الفصحاء وكان مطبوعا " . [89] ثم يعلق على أبيات له بقوله : " فهذه معان وألفاظ يعجز عنها أكثر

([82]) ينظر : الشعر والشعراء : 1 / 653 – 674 .

([83]) ملامح في تراث العرب النقدي : د.محمود عبدالله الجادر : 14 .

([84]) طبقات فحول الشعراء : 1 / 131 .

([85]) طبقات الشعراء : لابن المعتز، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج :354

([86]) ينظر المصدر نفسه : 316 – 317

([87]) النقد المنهجي : د. نصرالدين ابراهيم : 9

([88]) طبقات الشعراء : ابن المعتز، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج : 248

([89]) المصدر نفسه : 108

الشعراء ، فإنه قد جمع إلى اقتدار الأعراب وفصاحتهم محاسن المحدثين وملحهم ".[90] أما الحارثي فقال عنه : " وكان لايشبه بشعره شعر المحدثين الحضريين . وكان نمطه نمط الأعراب " [91]

فهذه الإشارات تدلّ على إدراك ابن المعتز لأثر البيئة المكانية على الشعراء وإن لم يصرح به، لا سيما في حديثه عن الحارثي الذي يتضح أنّه ميّز بين شعر الحضر وشعر البادية من حيث اللين والفخامة . وعليه " فالبادية طبعت شعر هؤلاء الشعراء بطابع خاص جعلهم بعيدين عن التكلف فهم كالبحتري ، أصولهم ونشأتهم بدوية اعرابية ، بيد أنّهم بعد ذلك سكنوا الحواضر فتهذّبت طباعهم ، وتأثروا مظاهر الحضارة التي ظهرت في أشعارهم التي بقيت مع ما ذكرناه ، محتفظة بطابعها الأعرابي الذي كوّنوا به نمطاً خاصاً في الشعر ، وسمّه ابن المعتز بنمط الاعراب " . [92]

إنّ إشارات ابن المعتز لمكان الشاعر وبيئته كالجبال والبادية والحضر تدل على مدى معرفته في أثر البيئات على الشاعر وشعره من حيث صلابة شعر البادية وخشونتها ، وليونة شعراء الحضر ورقتها ..

وقد خصص أبو زيد القرشي طبقة لشعراء المدينة وأختار سبع قصائد لهم من الأوس والخزرج وشكل منهم طبقة ، وهي طبقة المذهبات : " للأوس والخزرج خاصة ، وهن لحسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، ومالك بن العجلان ، وقيس بن الخطيم ، وأحيحة بن الجُلاح ، وأبي قيس بن الأسلت ، وعمرو بن امريء القيس " . [93]

وبذلك يثبت القرشي علاقة الشعر بالبيئة المكانية لأن المدينة من أكثر القرى العربية شعراً ، وهذه إشارة صريحة لأثر البيئة في الشاعر وشعره ، لأنه بهذا الاختيار ميَّز بين شعراء البادية والحضر ، إذ خصص الطبقات الثلاث الأولى الجاهلية لشعراء البادية . وخصص الرابعة لشعراء المدينة وهي طبقة المذهبات .

الخاتمة

إن نقاد العرب القدامى تنبهوا إلى عامل البيئة المكانية وفطنوا له كمؤثر في الشعر العربي ، وفصلوا فيه القول ، وكان لنقاد القرن الثالث الهجري دور بارز في استعمال وجعل هذا الأساس في تقسيماتهم ومفاضلاتهم النقدية ، كأبو عبيدة والأصمعي وغيرهما لاسيما ابن سلّام الذي كان له دور السبق والريادة في بحث جوانبه ، الذي أدرك ما للبيئة من أثر في صقل الشاعرية . وإن اختلاف البيئات أدّى إلى اختلاف نتاج الشعراء من حيث الجودة والكثرة وتنوع الأغراض الشعرية . لذلك نجد أن ابن سلّام اختار من بين القرى العربية خمس قرى وفضل المدينة على سائر المدن العربية . لأنها تحتضن جملة من الشعراء الفحول وعلى رأسهم حسان بن ثابت . فضلاً عن شعراء اليهود الذين ينتمون إلى المدينة .

أما دعبل الخزاعي فقد جعل من المكان أساساً لتقسيم شعرائه على المدن العربية والإسلامية، وجاءت طبقاته على ابواب وأقسام .

و خصص القرشي القسم الرابع من جمهرته وهو المذهبات إلى شعراء المدينة من الأوس والخزرج .

([90]) المصدر نفسه : 108

([91]) المصدر نفسه : 275

([92]) نقد الشعر لدى ابن المعتز : د.فائز طه عمر : 217 – 218 .

([93]) جمهرة أشعار العرب : أبو زيد القرشي : تحقيق : علي فاعور : 106

أما بقية نقاد هذا العصر كالجاحظ وابن قتيبة وابن المعتز كان لهم إشارات على أثر الحيز المكاني على نتاج الشعراء من حيث جودة المعاني وقوة اللفظ وكثرة الشعر وتنوعها . وفضلوا البيئة البدوية على البيئة الحضرية .

المصادر والمراجع

- أصول النقد الأدبي : أحمد الشايب ، ط10 ، مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، 1994م.
- الأغاني : أبو الفرج الأصفهاني ، تحقيق : سمير جابر ، ط3،دار الفكر ، بيروت . لبنان، (د.ت)
- البيان والتبين : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون : ط7 ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1418 هـ – 1998م
- تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ، راجعها وعلق عليها : شوقي ضيف ، دار الهلال ، القاهرة ، مصر ، 1957م .
- الثعالبي ناقداً وأديباً : د. محمود عبد الله الجادر ، ط1 ، دار الرسالة للطباعة ، بغداد ، 1976م .
- جمهرة أشعار العرب : لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي : تحقيق : على فاعور ، ط3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ، 1424 هـ – 2003م
- الحيوان :لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق وشرح : عبدالسلام محمد هارون ، ط2 ، مطبعة مصطفى باب الحلبي ، القاهرة – مصر ، 1384هـ – 1965م .
- الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جني ، تحقيق : محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة – مصر ، 2006م
- الخصومة بين القدماء والمحدثين في النقد العربي القديم تاريخها وقضاياها : د.عثمان موافي : ط3 ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، 1995م .
- دراسات في النقد الأدب العربي من الجاهلية إلى القرن الثالث الهجري : د. بدوي طبانة ، ط6 ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، 1394 هـ – 1974م .
- الديباج : لأبي عبيدة مُعمَّر بن المثنى التيمي (110 – 209 هـ) ، تحقيق :عبدالله بن سليمان بن الجربوع ، وعبدالرحمن بن سليمان العثيمين ، ط1 ، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1411 هـ – 19991م .
- الشعر والشعراء : لابن قتيبة : تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر ، د.ت .
- طبقات الشعراء : لابن المعتز، تحقيق : عبدالستار أحمد فراج ، ط4 ، دار المعارف ، القاهرة – مصر ، 1981م .
- طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري : جهاد المجالي ، ط1 ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، 1412 هـ – 1992م .
- طبقات فحول الشعراء : محمد بن سلّام الجمحي : تحقيق : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، القاهرة ، مصر ، د.ت .
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق القيرواني : تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، (د.ت) .

- فحولة الشعراء : الأصمعي ، تحقيق : ش. توري : قدم لها د.صلاح الدين المنجد ، ط1 ، دار الكتاب الجديد ، بيروت – لبنان ، 1389 هـ – 1971م .
- فصول في النقد العربي وقضاياه : محمد خير شيخ موسى ، ط1 ، دار البيضاء ، المغرب ، 1404هـ – 1984م .
- قيم جديدة للأدب العربي القديم والحديث : د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ، ط2 ، دارالمعارف ،القاهرة – مصر ، 1389هـ – 1970م .
- محاضرات في تاريخ النقد عند العرب : ابتسام مرهون الصفار ، وناصر حلاوي ، مطبعة دار الحكمة للطباعة والنشر ، الموصل : 1990م .
- مفاهيم في الأدب والنقد : حكمت علي الأوسي : ط2 ، مطبعة المعارف الجديدة ، الرباط ، 1984م
- مقالات في تاريخ النقد العربي : د.داود سلوم : دار الرشيد للنشر ، بغداد ، 1988م .
- ملامح في تراث العرب النقدي : د.محمود عبدالله الجادر ، ط1 ، دار الجاحظ للنشر ، بغداد ، 1983م .
- مناهج التأليف عند علماء العرب : مصطفى الشكعة : ط19 ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان ، 2009م .
- الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء : المرزبانيّ ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، دار نهضة مصر ، القاهرة . مصر ، (د.ت) .
- الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء : المرزبانيّ ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1995م
- نقد الشعر لدى ابن المعتز : د.فائز طه عمر : ط1، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 2009م .
- النقد المنهجي عند العرب : د. محمد مندور ، دار النهضة مصر الفجالة – القاهرة ، 1972م .
- النقد المنهجي في كتب طبقات الشعراء : نصرالدين ابراهيم أحمد حسين ، ط1 ، مطبعة الجامعة الاسلامية بماليزيا ، 2008م.

الرسائل والأطريح الجامعية :

- النقد في القرن الأول الهجري بيئاته واتجاهاته وقضاياه : حمود بن محمد بن منصور الصميلي ، اطروحة الدكتوراه ، في كلية اللغة العربية ، جامعة أ.م القرى ، المملكة العربية السعودية : 1414 هـ – 1994م .

الدوريات :

- فاعلية المكان في رؤية الناقد العربي القديم : أ.د. محمود عبد الله الجادر : مجلة كلية الآدآب ، جامعة بغداد ، العدد : 68 ، 2005م .
- نصوص من كتاب طبقات الشعراء لدعبل الخزاعي : محمد عبد الجبار المعيبد ، **مجلة المورد** ، المجلد السادس ، العدد الثاني ، 1397 هـ – 1977 م.